

أهـل السـماء

«كيف؟ ألا تقول أن السماء والطير برهان على وجود الله؟»

بلير باسكال
«الأفكار»

اقتصر في الصوت تعدد الأصوات منذ الأيام الأولى .
 بل يستطيع أن يؤكّد لنفسه الآن (بعد مرور الموسم، وتدفق السيول في الوديان) أن هذا الحشد السخي من الأصوات الذي يجود به الطائر الخفي هو السر الذي شدّه إليه طوال هذه الأعوام. صوت عليل، واهن، يماثل صفير الريح في عيدان القصب، يستحيل نقله إلى لغة الحروف، ولا يمكن تقليده باللسان، يبدأ أنيتاً خافتًا، فيستيقظ الشجن في الحال، يعلو في نغم عنيد، فيتشبه بوتر الحزن في «إمزاد»، الوتر الوحيد الذي يلتزم بوتر سفلي وحيداً أيضاً، فيتحما، ليبدعا، معاً، شجناً، حزناً، غناءً، ملحمةً تروي سيرة الصحراء كلّها. الصوت الخفي أيضاً يدع سرّاً مهاناً. الصوت الخفي الذي لا ينتقل إلى لغة الحرف، ولا يُعرف برسم الرمز، ويرفض أن يُقلّد باللسان، يبدأ أنيتاً وديعاً، واهناً، غائماً، غامضاً، يستفزّ الحنين، ويوقظ، كلّما أرتفع، وتعالى، شرراً خفياً، شرراً كان دائماً ناموس العابر، كان دائماً ديانة أهل الخلاء الذين لا يكفون منذ أن وجدوا، منذ أن ولدوا، عن طلب ما أخفاه الخلاء. يزدوج الصوت فجأة، ينضم طائرٌ خفيٌّ، آخر، إلى الطائر، فيولول الصوت الجديد بحوالٍ جديداً. تتلاعّم النغمتان وتتلاحم في لحن واحد. لحن جديد، فتنتعطف

الأغنية ، وتحلق في مدى آخر ، يتبدل العراء ، وتمدد المسافة . يشتت
إغواء الخلاء ، وتعد الصحراء بمعاد جديد . بمعاد خالد ، ولد نوم
ولد العابر ، وجد يوم وجِد العابر ، ولكن العابر يمضي ، العابر
يعبر ، ويقى الوعد ، يقى الإغواء الخالد ، إيماء المعاد المستحيل ،
الذي وجد كفخ عظيم ، يسوق العابرين إلى الصحراء ، إلى الحياة ،
ملوحاً بالوعد ، واعداً بالواحة ، بالمعاد الذي لا يدرك . في البعد
الجديد يغلب الفرح ، وفيض القلب وجُدّاً ، يرتجف البدن برعشٍ
كالرقص لأن وهجاً تبدى في الأفق ، لأن قبساً شقّ ظلمات
الأفق الأبدي الشاحب ، فلاخ ، لغمضة قصيرة كومض البروق ،
إيماء تاق العابر لنيله طويلاً ، وجاهد لمشاهدته أولاً كالأبد ، فرسم
الفراغ الصارم ، المعادي ، الأبدي ، بإشارة كشرر الوحي ، فرأى
ما لم يستطع أن يراه في المدى ، ووجد ما لم يستطع أن يجده ، وجد
ما لم يطمع في أن يجده .

.. فكيف لا يتزرع الجسد الهزيل برعش الوجود؟

وكيف لا يفز من المقلة دمع الحنين؟